

رواية النحيط

المؤلف
شيغالي الحبيب



إهداء

إلى أصحاب دور النشر الذين رفضوا طبع هذه
الرواية و الذين مازالوا سيرفضون لاحقا شكرا
، لولا رفضكم المستمر لما واصلت في السعي
لطموحاتي ، لكم كل التقدير و كامل الاحترام .

المقدمة

إذا كانت الصفحات كثيرة بالنسبة لك فلا تأبه
لقد حسبت لذلك ألف حساب و الأفكار الرئيسية
مختصرة في كلمات قالها الشاعر و الكاتب حمزة
الشيخ.

هذا الجسد النحيف والطويل .. لي

هذه التوابل الحمراء .. لي

وهذا الحرف المنكمش

المنعزل كالحفرة .. لي

هذا التوقيت الفارق الجامد

المجالد السابق السارق .. لي

هذا القهر و تلك الخطيئة

المستندة على الموت .. لي

كل الأشياء في الغالب .. لي

حتى هذه اللي .. لي

إلا أنتِ .. لستِ لي

يمكنك إغلاق دفتي الكتاب فلم يعد هناك ما يستحق
القراءة.

الفصل الأول

في بعض الأحيان قد نحب بدون أن نشعر
كيف أحببنا و لا كيف وقعنا في الحب أصلا
، فحين نحب نصير عُمية لأن المشاعر تعمينا
عن جمال الشخص و أناقته و براءته ، و
نكتفي بأن تذوب روحنا مع روحه فنصير
" نحن " بدلا من " أنا و أنت " .

لقد طرقتي باب قلبي دون موعد و جعلته
يخفق شغفا لك هل تذكرين كيف كنت أحبك
؟ ، هل تذكرين كل شيء قد قلته لك ؟ ، و
هل تذكرين تلك الأيام التي قضيناها معا و
تلك الضحكات و الهمسات و الأحاسيس و كل
المشاعر التي تبادلناها يوما .

اعلمي جيدا أنني لا أذكركِ بها لأنني اشتقت
لك بل لأنساكِ ، و الآن سأعود بكِ إلى ما
قبل ستة سنوات هل تذكرين ذلك اليوم حينما
جلستِ بقربي و تبادلنا الأحاديث أو بالأحرى
كنت أنصت إليكِ لم أستطع أن أنطق بأي
كلمة لأنني شخص هادئ بطبعي ، وفي ذلك
اليوم أصغيت إليكِ بكل شغف و لم أدري

لماذا كنت أصغي بهذا القدر هل هو الحب ؟
، أم أنه من الأدب أن تنصت إلى غيرك حين
يتحدث .

لم أفهم نفسي يوماً ، ولماذا لم تفارقي تفكيري
؟ ، و لماذا لم أنم تلك الليلة ؟ ، و لماذا كان
يقتلني الشوق إليك مع العلم أنه لم تنقضي
سوى ساعات معدودة على تعارفنا .

كنتُ أريد فقط أن أراكِ و ألقى عليك السلام
يكفيني أن أسمع صوتكِ حتى أشعر أن روحي
قد فارقت جسدي و أنها تطير بعيدا مع
روحكِ ، هل تذكرين ذلك اليوم عندما كنت
في انتظاركِ كي نذهب ألقيت بقصيدة لأتغزل
بكِ كما كنت عادتي (تعلمين أنها مميزة ...) .

كنتِ بتلك البراءة التي أعمتني عنكِ و جعلتني
أصدق بأنكِ لم ترتكبِ أي خطيئة في حياتكِ
لأنها طبيعتنا البشرية فحين نحب بصدق لا
نرى عيوب المحبوب لأن العشق يعمينا ، كم

كنت أحبك لدرجة أن نفسي من نفسها كانت تتعجب .

لأن سأنتقل بكِ إلى مكان آخر بعيدا عن قصتنا هل تذكرين إبراهيم صديقي الذي حدثتكِ عنه ، و أخبرتكِ بأنه من أصدقائي المقربين فلولا تلك النصائح التي يمدني بها كنتُ لأرتكب الكثير من الحماقات مع أنه أولى بارتكابها مني لأننا نقيضان أنا هادئ و هو صاحب لطالما كنا على خلاف في وجهات النظر كان و لا يزال من أعز أصدقائي الأنبي اجده دائما و في الوقت المناسب أيضا.

يكفي ما قد أخبرتكِ به لتتعرفي عليه ، و الآن أنصتي جيدا أنا لا أكتب عنكِ لأنني افتقدتكِ بل لأنساكِ و أنسى تلك اللحظات التي فرضتي علي فيها أن أبدو غيبا ، و كم كنتُ سخيفا حين ظننت بأنني أحبكِ لكن مع مرور الأيام ظهر لي العكس فقد ظننت بأنكِ ستدافعين عن قلبي مثلما كنتُ أفعل معكِ و للأسف لم يحدث ذلك هل تذكرين ذلك

اليوم حين أشعلت نار غيرتك عندما كنا جالسين
في إحدى المتنزهات أمعنثُ يومها النظر إلى
الفتيات اللاتي كن بقربنا فآزعجك الأمر.

صرختي علي قائلة " كيف تتجراً و تنظر إلى
فتاة غيري أنتَ لي وحدي هل كلامي مفهوم
" ، و أجبتيك بصوت بارد و نظرات جامدة "
هل أستطيع أن أكون لسواك أنا لك و أنتِ
لي" أجبنتي " إذا دعنا نغادر المكان فأنا لا
أحتمل الجلوس فيه " ؛ و لأعترف لكِ بالحقيقة
الكاملة يومها لم أنظر إليهن بغير قصد بل
فعلتها فقط كي تغاري قليلا و صدقيني لقد
كان الأمر مخيفاً.

مع أن معظم القصائد و النصوص التي أكتب
تتضمن في محتواها على العاطفة و لاشيء
سواها فالיום أشعر بأنني صرت أجهل معنى
أن نحب ..

بصراحة لم أحب بصدق قبل أن أتعرف عليكِ
و لظالما حدثتني الأستاذة عائشة عن ذلك

الشعور حين كانت تقول بأنه أجمل شيء
قد يحصل في حياة الإنسان ، ربما لا تعرفينها
لأنها من كانت تصح لي الأخطاء اللغوية
التي أرتكب في كتاباتي و أعتبرها مثل
الأخت الكبيرة لحكمتها و روحها المرحة أعلم
بأنني لم أخبرك عنها سابقا فقصتها طويلا
و حان الوقت لتعرفيها.

الأستاذة امرأة على مشارف عقدها الثالث
طويلة بعض الشيء يخيل للمرء حين يراها بأنها
آسيوية صاحبة ملامح تسري الطمأنينة في القلب
يكفي بأن تتكلم حتى تدرك ما تحمل من ثقافة
و أدب الحوار ، وهي تعمل في إحدى مكاتب
الترجمة ..

التقيت بها في إحدى الندوات الثقافية ، و بعد
فترة قصيرة على تعارفنا أخبرتها بأنني من
هواة الكتابة ، مرة الأيام و صداقتنا تكبر أكثر
بكثير أمضينا ساعات في نقاشات حول
مواضيع طرحها كارل ماكس و أفلاطون (لا
تعرفينهما فلطالما كرهت الفلسفة و أتباعها).

مع مضي الأيام و الشهور لاحظت شيئا فيه بعض الغرابة يتعلق بتصرفات الأستاذة كانت دائما مشغولة البال و في أغلب الأحيان تهيم في الفراغ شاردة لم أستطع تفسير ذلك ، و لم أرد سؤالها عن سبب ذلك الشرود الغريب على الدوام ، لست من النوع الذي يحشر أنفه في ما لا يعنيه.

في إحدى المرات دعوتها لاحتساء و متابعة إحدى المباريات التي كانت تعشق و تنتظر لأنها مباراة نصف نهائي دوري أبطال أوروبا و المباراة بين بريس سان جرمان و مانشستر يونايتد سيكون هناك اصطدام بين الأساطير ، لقد كان ذلك أقل شيء أقدمه لها بعد كل ما فعلته من أجلي.

بعد انتهاء المباراة بدقائق قالت لي "أعلم بأنك لاحظت شرودي و انقطاعي عن العالم في بعض الأحيان ، وربما تكون قد لاحظت تلك النظرات الغريبة " أجبتها : " نعم و فضلت عدم السؤال لكي لا يسبب لك الأمر

احراجا أو ما شابه " ، فقالت : "دعني أخبرك بقصتي حينها سيتضح لك كل شيء عندما كنت في الثانوية العامة التقيت بشاب يدعى جمال لقد أحببته للغاية و هو كذلك بادلني نفس الشعور إلى أن صار الجميع يعرف ما بيننا لم يكن يخجل من إظهار حبه لي بل العكس تمام كان يفتخر به ، و بعد نجاحنا في الثانوية العامة التحقنا بالجامعة و أختار هو أن يسلك درب أحلامه أي التجارة فلطالما أراد أن يحقق ثروة في سن مبكر و خصيصا لأنه ينحدر من أسرة غنية معروفة بالتجارة ، و بعد أن أكمل الخامسة و العشرين قرر الزواج مني حين كنت في الثالثة و العشرين طلب يدي- و- وافقت العائلتان لكن الشرط الوحيد لذي وضعه والدي كان في أن يحافظ على سعادتي ؛ و ظننا بأن أحلامنا تتحقق فبعد شهرين من الخطبة أقمنا حفل زفاف ضخم للغاية حضره القريب و البعيد كنا أسعد شخصين في العالم مرت السنوات سريعا ، و أنجبت توأمين أسميناهما عتيق و

عثمان لم أدري ما إن كنت أسعد بكوني
أعيش مع حبي الأول و الأخير؟ أم لأنني
أصبحت أم؟ ، ربما السبب هو الأمران معا
.. لقد كانت تلك الفترة من حياتي هادئة
للغاية و كما يقولون كان هدوء ما قبل
العاصفة ففي يوم من الأيام و نحن نتجه
إلى الشاطئ كالعادة كنت أحمل الصغيرين
أدعب أناملهما لا أدري ما حصل بالتحديد
كل ما أتذكر هو أنني فقدت الوعي بكل
بساطة و بعد أن استيقظت سمعت صوت
المرضة تقول : لقد استيقظت .

طالعتها بنظرات حيرة و أنا أتحسس جهاز
قياس النبضات أشعر وكأن رأس سينفجر من
الألم استجمعت ما تبقى لي من قوة و قلتُ.
ماذا حصل و أين أنا؟.

سيدتي البقية في حياتك لقد تعرضتم لحادث
بالسيارة.

كانت تلك هي الكلمات التي غيرت حياتي
شعرت بدموعي تتساقط لا إراديا ، و أكملت
طرح الأسئلة عليها فلم يتبقى لي سوى التساؤل
و البكاء.

زوجي و أبنائي ماذا حل بهم.

أخذتُ شهيقا و قالت : زوجكِ قبل أن يتوفى
أوصى أحد المسعفين بشيء.

ضغطت زر قرب السرير و بعد ثوانٍ دخل
شاب هزيل الشكل يحمل سماعات طبية و
بدون مقدمات قال الشاب.

زوجك قال قبل وفاته بأنه يحبكِ للغاية و بأنه
معكِ ستشعرين بقربه و تذكرين أن الحب لا
يموت مع الأشخاص بل يبقى محفورا على
منحنيات الذاكرة.

لم أستطع التحمل من شدة البكاء و الصدمة
فقدت الوعي ، و لازمت المشفى لشهرين
لأتعالج من الجرح الذي كان في قلبي بعد

أن عرفت بأني قد خسرت كل شيء و مع كل ذلك لم أفقد الإيمان بالله . فبعد أن صرت في حالة شبه مستقرة أخبرني المفتش المسؤول عن القضية بأن مجموعة من الشباب كانوا يقودون بسرعة مفرطة هم من تسببوا بكل ما حصل لي من آلام ستبقى حتى آخر العمر ، لا أنكر بأنها كانت أصعب لحظات حياتي فقد اضطررت للاستعانة بخدمات الأطباء النفسيين لأتمكن على الأقل من ممارسة حياتي اليومية مرت الساعات و تلتها الأيام و الأسابيع استطعت..

أخيرا تجاوزت تلك المحنة صار وضعي مستقرا و مع ذلك لن أنسى تلك الخسارة التي قلبت حياتي بالكامل و عندما لمحتك في تلك الحفلة التي نظمتها الجمعية قبل سنة تذكرت جمال فأنت تشبهه للغاية حين كان يدرس معي في الثانوية العامة لديك نفس الوجه ، التصرفات ، برودة الأعصاب ، و نفس طريقة الكلام لذلك صرت ما أن أسمع بحفل

ثقافي أحضر لأراك لنتحدث فذاك يسد تلك
الفجوة التي تستوطن أعماقي حتى الآن".

يومها زاد تقديري واحترامي للأستاذة عائشة
فهي امرأة قوية حتى بعد خسارة أعلى ما
كانت تملك لم تفقد إيمانها بالله بل زاد و
المميز فيها هو الوفاء الذي تكنه لزوجها حتى بعد
رحيله .

الحب هو حين تتعلق الأرواح ببعضها و لا
تفقد الأمل في اللقاء حتى و إن كانت
المسافات أبعد من ما بين الأرض و السماء
يبقى لدينا الأمل في اللقاء ، لأننا نوّمن بأن
الله سيجمع قلوب العاشقين في يوم من الأيام .

"الفصل الثاني"

لقد كنت أحبك لدرجة أن نفسي من نفسها
كانت تتعجب أما في الوقت الحالي فلا أريد
سوى أن انسى كل ما قد جمعني معك يوماً
لذلك ستكون هذه آخر مرة أتذكرك فيها قبل
الإعلان عن دفن جثمان ما صار يسمى بحبنا
السابق .

يقول أحدهم بأننا لا نستطيع أن نكره قلوبنا
تعلقنا بها و تبادلنا معها العاطفة في يوم من
الأيام و في حالتنا العكس هو سيد الموقف
لأكون صادقاً معك فأنا لم أعد أحبك و في
نفس الوقت لا أكرهك ببساطة لم أعد أشعر
بأي بشيء اتجاهك صارت كل مشاعري
متجمدة.

صحيح أن الفراق مؤلم أما فراقك فلم يكن
له أي تأثير على حياتي بل صارت أفضل
و أكثر حيوية لا أدري ما السبب فهناك احتمال
كبير أن أكون تعبت من أكاذيبك أو أن بقائك
و غيابك صارا يتساويان عندي لا أعلم أي
هذه الإجابات هي الأصح هناك شيء أنا
متيقن منه ، و هو أنني لا أشتاق لك و بالمناسبة

ركزي جيدا على السطور المقبلة لأنها تحمل
الأجوبة التي تريد.

هل تذكرين حارس العمارة شيخ؟ ، لا بدّ من
أنك نسيتَه كما سأفعل معك ولطالما أعجبتني
شخصيته فحين نتحدث عن الصبر والرضى
بقضاء الله علينا ذكره.

قلتُ له في إحدى المرات.

رئيت عبارة في إحدى روايات أدهم الشرقاوي
تقول بأن هناك بعض البشر يعرفون ألف
دليل على وجود الله .

فأجابني بعد ابتسامته المعتادة.

في نفس الرواية يقول المؤلف لو أن نفوسهم لم
تكن تحمل ألف شك على وجود الله لماذا
بحثوا عن ألف دليل على وجوده.

لم أستطع الاستيعاب هل بعد كل تلك المشاكل و
أنواع العذاب لا يزال صابرا على حاله؟.

حاولت اختصار حالته في مقولة تتكرر على مسامعي دائما {من يهده الله فلا مضل له و من يضلل فلا هادي له}، و باختصار و صل إلى مرحلة الرضى و الإيمان بالله فحين نرضى بكل ما كتب الله ترتقي الأرواح ، و قد علمني شيخ بأن الإيمان الصادق بالله هو الطريق الأسرع للتيسير و التوفيق.

ما أصاب الأستاذة عائشة من الآلام لا يضاهي الذي عاشه شيخ ، و كي لا أطيل عليك الموضوع سأحكي قصته و من ثم نكمل حساب ما تبقى بيننا.

لقد كان شيخ ينحدر من أسرة فقيرة للغاية حيث كان والده يعمل في مجال الزراعة و أمه في تدبير منازل الأسر الغنية ترعرع مع إخوته الستة حيث كان أكبرهم و يعتني بهم في غياب والديه ربما كان ذلك من الأسباب في عدم و لوجه إلى التعليم فكما أخبرتك وضع عائلته المادي مزرر للغاية و دخلهم بالكاد يكفي لاقتناء المستلزمات من مأكـل و مشرب و بعض الثياب المستعملة.

مرت الأعوام سريعا كبر شيخ و صار لديه ستة عشر ربيعا ، وفي يوم من الأيام الشتوية و بينما كان يساعد والده في الحقل كعادته سقط الأب مغشيا عليه و جرى شيخ بأقصى سرعة ناحية والده الذي يصارع ليثبت على جلسته حين وصل حين وجده ينطق أنفاسه الأخيرة ، و قبل مغادرته للحياة قال بصوت أشبه ما يكون للهمس.

ابقى شريفا كما ربيتك و لا تدع الطمع ينسبك من أنت الفقير ليس عيبا بل العيب في السرقة و الخداع اعتني بإخوتك و أمك جيدا أحب..

في تلك اللحظة انقطعت أنفاس والد شيخ و عقب ذلك المشهد الصراخ و العويل و رفيقهما المحبب النحيب كل تلك لأشياء سنتخطاها فلا شيء أحر من الجمر أكثر من الموت و خصوصا إن كان المتوفى والدك ، و لماذا لا نبكي على الناس عند ولادتهم فقد صار محكوما عليهم بالموت يوما ما.

و الآن صار شيخ المُعيل الوحيد لأسرته بعد انتقال أبيه ، و تدهور صحة أمه التي أقعدها المرض و حاجة إخوته الصغار للأكل و الشرب و من يعوضهم حنان الأب المفقود الذي لا يعوض خصيصا أنهم انتقلوا إلى العاصمة بعد وفاة والده.

أدرك شيخ بعد خمسة أعوام أن بيع السجائر لن يفي بالغرض ، وبدأ في البحث عن وظيفة مهما تكن المهم أن لا تعيش أسرته تحت ظل التشرد لذا بحث بكل جهده و لم يترك باب أي نجار أو حداد ... إلا وقد طرقه.

أخيرا وجد عمل كغاسل صحون ، و ذلك أكثر شيء أدخل على قلبه البهجة و السرور فأخيرا سيبدأ في اقتناء حاجيات أسرته ليعيشوا بدون شفقة من أي شخص .

في إحدى الليالي الغائمة كانت الأجواء أشبه ما تكون بالضبابية كعادة أجواء العاصمة نواكشوط في تلك الفترة لأنه فصل الخريف و المدينة شبه خالية إلا من العمال ، و بينما

كان شيخ يقطع طريق العودة إلى منزله الذي يبعد عن مكان عمله بمسافة ليست بالقريبة لأنه يعمل في وسط العاصمة بينما يسكن في ضواحيها و بعد نزوله من الحافلة شعر بيد باردة تقبض على كتفه ، انتفض قلبه وقال : من هناك ؟ أجابه ذلك الشخص بصوت أقرب إلى فحيح الأفعى " لا تخف أنا هنا من أجلك و هدفي هو مساعدتك دعنا نبتعد قليلا عن هذا المكان "

أجابه الشيخ بعصبية !

- لن أذهب معك إلى أن تقول لي بالضبط من أنت و ماذا تريد.

- هل تريد معالجة والدتك و إخراج عائلتك من الفقر إلى الغنى ؟.

- من أين تعرف أسرتي و من قال لك بأن أمي مريضة.

- ألم أقل لك بأن حديثنا في هذا المكان لن يجدي نفعا.

قرر الذهاب معه إلى أقرب زقاق، ولاحظ أن الرجل لم يكن وحده فقد كان معه رجلان آخران ليس له من طريق للفرار إذا قرروا التهور أو ما شابه بعد وصولهم إلى مكان بعيد عن أعين الناس استأنف صاحب اليد البارد الكلام بلا أي مقدمات.

- تعرف جيدا أنك من أسرة فقيرة بئسة و أنت معيلهم الوحيد، والدتك الآن على مشارف الموت و قد ينفذها العلاج الكيميائي من الموت المؤكد و لذلك أنا هنا لأقدم لك فرصة العمر كل ما عليك فعله هو أن تُهرب شحنة من المخدرات إلى إحدى بلدان الجوار وفي المقابل سنتكفل بعلاج والدتك، وليس ذلك فقط بل سندفع لك خمس مئة ألف أوقية أعتقد بأن العرض مقنع.

قال شيخ مع علامات التوتر البادية على محياه والتي تظهر بأنه عديم الخبرة في الحياة: ما اسمك يا سيدي؟ .

أجابه صاحب اليد الباردة.

دعك من الأسماء لأنها مجرد أسماء سأعطيك مهلة
إلى مساء الغد فكر في قرارك ، ستجدي هنا
في نفس الوقت.

أجابه شيخ بقلق وكلمات متقطعة.

حا .. ضر سيدي.

خرج من الزقاق و انصرف إلى منزله كان
متوترا للغاية.

عند دخول شيخ المنزل لم يتكلم مع أحد
ألقى السلام و توجه إلى سقيفة فلم يكن
لديهم في منزلهم سوى غرفة لأمه و أخرى
يشارك فيها مع اخوته كان سقف المنزل مكانه
الذي يجد فيه السلام و الهدوء.

في تلك الليلة لم ينم لكثرت الأفكار التي تدور
داخل رأسه الأسوأ أن صراعا محتدما كان
يدور في نفس بين الرغبة في تحقيق الثراء
و كلمات والده قبل أن يفارق الحياة..

بعد تفكير عميق وجد النوم طريقا إليه ، و مع مرور الوقت نام بعمق كالطفل.

صباح اليوم الموالي حسم قراره ، و سيفعل ما كان والده سينصحه به لو كان على قيد الحياة لذا توجه إلى عمله و بعد انتهاء الدوام في المساء استقل الحافلة المعتادة.

في مكان اللقاء كان ضوء ذلك الزقاق شبه منعدم و سواد الليل قد غطى المنطقة بالكامل ، و هناك شاب نحيل بعض الشيء يرتدي ثيابه البالية ذلك نفسه هو شيخ كان ينتظر صاحب اليد الباردة بينما تمضي الدقائق و قلبه يخفق بسرعة.

قرر الرحيل ، و حين همَّ بالانصراف شعر بتلك اليد الباردة التي صار يعرفها أكثر من نفسه تضغط على كتفه الأيسر قفز من الهلع قائلاً .

هذا أنت يا سيدي .

نعم ، والآن هل حسمتَ قرارك ؟.

قبل أداء المهمة أريد نصف المبلغ المتفق عليه
لأنني في أمس الحاجة إلى المال.

لك ما تشاء المهم أن تقوم بعملك كما اتفقنا.

انقضى يومان على لقاء شيخ بصاحب اليد
الباردة و في مساء اليوم الثاني اتصل به
ليسلمه نصف المبلغ المتفق عليه التقى به و
سلمه حقيبة تحتوي على مئتين و خمسين ألف
أوقية (لم يرى صديقنا هذا المبلغ حتى في
أجمل أحلامه) ، و شرح له صاحب اليد الباردة
الخطة بتفاصيلها ، و موعد التنفيذ بعد أقل من
أسبوع و إلى ذلك الحين فليبحث عن كذبة
يقنع بها عائلته ليتمكن من السفر بدون أن
يشكوا في أمره.

لقد هدده قائلاً بأعصاب باردة كيده.

إذا قررت خيانتنا أو التراجع فحينها سنسمح كل
أثرك و لأسرتك و لن يبقى أحد منكم أثر على
قيد الحياة.

تسارعت نبضات قلبه فهذا على ما يبديوا ليس تحذيرا بل تهديد، و هؤلاء الأشخاص قد يقومون بأي شيء لذا اکتفى بالطاعة و الانصراف.

لم يتوجه إلى منزله بل لأقرب وكالة عقارات لأنه ينوي شراء شقة في حي من أحياء الطبقة المتوسطة، ابتاع المنزل الذي يريد و الأثاث الازم فبعد يوم من شرائه للمنزل انتقل بعائلته إليه، و كان أفراد العائلة في صدمة فكل شيء جديد خصيصا أنه جلب لهم ملابس جديدة و الثلاجة التي تقبع داخل المطبخ ممتلئة عن آخرها بكل أنواع ما لذ وطاب، و هو ما لم يحلم به أي فرد من عائلته قبلا.

السؤال الذي راود الجميع هو من أين له هذا المال كله لكنه أقنعهم بفوزه بجائزة، وانطلقت عليهم الكذبة لذا أقنعهم أيضا بحصوله على وظيفة جديدة براتب كبير.

بعد انقضاء الأسبوع أتى الموعد المنتظر لقيام شيخ بمهمته و يحصل على بقية نقوده التي

ينوي أن يفتتح بها المشروع الذي حلم به و يرجع إلى العيش بشرف و يسعد عائلته.

في ذلك اليوم أعد حقيبتة و أخبر والدته باعتزامه على السفر لعمل مستعجل و ربما يستغرق السفر أسبوع لذا ودع اخوته و استقل حافلة إلى المكان المتفق عليه كان صاحب اليد الباردة في انتظاره ليعطيه جواز السفر الخاص به و حقيبة تحتوي على كمية كبيرة من المخدرات المخبأة جيدا في الجوانب بطريقة لا تلفت الانتباه، تلقى شيخ تعليمات اللازمة آخرها كان خبر الجماعة التي سيسلم لها الشحنة في المطار الآخر.

بخطوات متتافلة و أنفاس متقطعة دخل شيخ المطار مرافقا بكلمات صاحب اليد الباردة التي أوصاه من خلالها بالهدوء فكل شيء سيكون بخير ولن يكشف أي شخص أمره لذا استجمع التركيز و الهدوء قبل أن يضع حقيبتة على جهاز الفحص كما أمرته الشرطة وفي الحقيقة لم يكن يعلم فائدة الجهاز و مع ذلك خضع للأوامر.

عبر هو من جهاز الآخر سمع الضابط يقول بأنه لكشف المعادن ، و اجتازه بدون مشكلة فتوجه إلى حقيبته ليأخذها لكن استوقفته الشرطة قائلة .
سيدي انتظر من فضلك !.

نعم.

تفضل معي لنفتش حقيبتك ، هناك جسم غريب داخلها.

لم يستطع سوى أن يخضع لرغبتها فبرفقتها شرطيان و أفراد آخرون يحيطون بالمكان حتى و إن أراد الهرب فلن يستطيع ، و توجه معهم إلى الغرفة المخصصة للتفتيش و هي ضيقة بعض الشيء.

وقف شيخ بالقرب من الطاولة التي وضعت عليها الشرطة الحقيبة قبل أن تبدأ في التفتيش

..

مضت دقائق وهي تبحث بجهد في كل مكان ، وفي الأخير لم تجد شيئاً ليتنفس شيخ الصعداء

أما الشرطة فلم تقرر بعد أن تتركه في سبيل
حاله فقد أحست بانتفاخ في الطرف الأيسر
من الحقيبة وأخذت السكين الذي كان بقربها
لتغرزها في تلك المنطقة المنتفخة ليخرج منه
مسحوق أبيض أخذت الشرطة منه عينة
وضعتها داخل وعاء يحتوي على مواد كيميائية
فتحول لون المادة إلى الوردي الغامق ، قالت له
الشرطة بلهجة غليظة.

سيدي سيتم توقيفك بتهمة محاولة تهريب
المخدرات.

أصابت الصدمة شيخ فقد كان ذاك أكبر خطأ
ارتكبه في حياته فقد خالف وصية والده حين
ظن بأن هناك طريقة سهلة لجمع المال لأن
الطمع أعماه ليكلفه الحرية التي لم يدرك قيمتها
سوى الآن.

تم الحكم عليه باثني عشر سنة من السجن مع
امكانية إطلاق السراح المشروط.

كان الوقت يمضي بينما تنقضي السنوات و
شيخ لا يزال خلف القضبان مع العلم أنه

تعرض للكثير من المضايقات عند مجيئه للسجن قبل أن يخوض بعض المشاجرات التي أكسبته هيبه ما فرض على السجناء احترامه بكل معنى الكلمة.

بعد سنوات من دخوله السجن اليوم الذكرى الثامنة لسجنه و سيتم اطلاق سراحه بعد أن تمت دفع كفالته من طرف مجهول ليعود للحياة التي افتقد.

انقضت أكثر من ثماني سنوات على آخر مرة رأى فيها أمه و اخوته لذا قرر أن يتوجه إلى شقتهم التي ابتاعها قبل أن يسجن ، و استقل التاكسي و عند وصوله دفع الأجرة ببعض النقود التي حصلها من بعض الأعمال في السجن.

حين وصل إلى منطقتهم القديمة و بالتحديد أمام باب عمارتهم التي لم يتعرف عليها في بادئ الأمر فالمكان لم يعد كما كان و ما جعله يصدم هو وجود اناس آخرين في شقتهم وبحسب

كلامهم فهم يقطنون هنا منذ أكثر من خمس سنوات.

بعد المحاولة الفاشلة في البحث عن عائلته بدأ التجول في الحارة لعله يجد أحدا يعلم ما حل بهم أو يملك عنوانهم الجديد ليلتقي بجارهم القديم العم صلاح صاحب الدكان اعطاه ذلك الأمل ليعرف ما حل بعائلته لكن على ما يبدو العم صلاح لم يتعرف عليه و على كل حال سأله بسرعة البرق.

مرحبا يا عم.

أهلا ، كيف لي أن أساعدك.

هل انتقلت تلك العائلة التي كانت تسكن في الطابق الثاني من العمارة السادسة؟.

لقد شب حريق ضخم في بيتهم منذ ست سنوات ولم ينجوا من تلك العائلة أي فرد و أسباب الحريق لا تزال مجهولة إلى الآن.

قال شيخ بصوت متلعثم ممزوج بالنعيب " لقد خسرتُ آخر ما تبقى لي في هذه الحياة".

، استغرب العم صلاح و سأله .

لم أسمع ما قلته يا بني ؟.

لا شيء ، أنا متشكر لك علي الانصراف.

ركض شيخ بدون توقف ليترك العنان لقدميه فتأخذه حيث تشاءان وبعد فترة تملكه التعب ليجلس على الرصيف للحظات استعاد فيها كل ذكرياته و بكى إلى أن تورمت حدقتا عينيه فقد خسر كل شيء : والده و عائلته التي حارب قسوة السجن ليعود من أجلها فلم يتبقى له شيء أو شخص يعيش من أجله كانت هذه الخواطر تختلج رأس شيخ و ينسى أن عليه العيش لنفسه مهما حصل.

هو الآن متشرد يقضي وقته في الاستلقاء على الأرصفة و يعيش من خلال التسول ، وقد بدأ يحب المواد الكحولية فهي تساعده في نسيان بعض تلك الآلام التي لحقت به ، و

في يوم من الأيام دخل إلى المسجد المجاور للمنطقة التي يتسول فيها ليأدي الصلاة التي لم يقم بها منذ زمن ، فهو عن نفسه لا يذكر آخره مرة صلى فيها و بعد انتهائه من صلاته قرر البقاء قليلا ، ليس لأنه يريد لإصغاء إلى تلك المحاضرة بل لأن المكان كان مريح للغاية وفي نفس الوقت كان مركزا بعض الشيء.

قال إمام وخطيب المسجد الذي كان يقف على المنبر بهيبته التي كست الأجواء : أيا معشر الإخوان دعوة نادب إلى الحق والمعروف ليس بكاذب أعيروني الأسماع أوصي إليكم وصية مصح النصح غير مُخالبٍ أما بعد فالحديث اليوم فهو عن الأمل ، وربما تتساءلون عن الأمل؟ يا إخواني عندما نفقد الأمل تضيع منا أكبر أسباب الحياة ، قد نطلب من الله شيئا وبعد فترة ننسى عنه ، ولكن الله عز و جل لا ينسى تلك الندوب التي استوطنت أعماقنا إلى أن صارت منبع الحزن ، و لا ريب في أنكم بحثتم عن العلاج لكنه غير موجود لتنسوا بأن الحزن و الغم يذهبان بسجدة و

السعادة تأتي بدعوة صادقة من القلب ،
بالأحرى كيف تبتعدون عن الله و مع ذلك
تطلبون السعادة فالوقت لم يفت للتوبة و
الرجوع إلى الله ، اطلبوا رحمته و استغفروه
ليغفر لكم ولا تنسوا بأنه الرحمن الرحيم.

هذه الكلمات حركت قلب شيخ و جعلته يغرق
في دموعه من جديد لكن هذه المرة كانت
على غرار سابقتها فدموعه تمثل توبته التي عزم
عليها فقد مضى وقت على آخر مرة تاب فيها
من ذنب واحد و هو من كان يعيش على
اقتراف الذنوب طوال سنواته الماضية لذا قرر
شيخ أن يتغير و يبدأ حياة جديدة فهي أول
خطوة في طريقه إلى الصلاح يومها أنفق
كل المال الذي يمتلك لشراء بعض الثياب
الرخيصة و دفع رسوم إحدى الحمامات العمومية
حيث استحم لتخلصه المياه النقية من القذارة
التي كانت ملتصقة به منذ سنوات.

بعد يوم حافل صار شخصا آخر و لم يعد
ذاك المتشرد الذي يقضي ليليه في جنبات
الطرق مع أنه لا يملك المأوى في الوقت

الحالي فقد سمح له إمام المسجد بقضاء بعض الأيام معه إلى أن يسوي حال معيشته فقد اخبر شيخ الإمام بقصته و تأسف الأخير لحاله ، وفي نفس الوقت فرح من أجله لأنه قرر تغيير حياته للأفضل.

يقول أحدهم بأن الفقر ليس عيبا بل العيب في أن تفقد الأمل و تنسى كرامتك فالمشكلة ليست في عدم نسيان الماضي بل التمسك به لذا علينا ترسيخ الفكرة القائلة بأن ما فات قد مات و لن يعود مهما حدث فالحياة تمضي قُدُما و علينا مواكبتها.

بعد مرور ثمانية عشر يوم حصل إمام المسجد على وظيفة من أجل شيخ كحارس لإحدى العمارات و العمل الجديد يوفر له السكن و راتب شهري يغطي حاجياته هكذا بدأ حياته الجديدة بقلب و إيمان راسخ بالله.

لن أنسى نصيحته التي كان يكرر كلما التفتت به قائلا : من أجمل الأشياء في هذه الحياة هي راحة البال و لحظاتك السعيدة مع من تحب لعلك

تتساءل في نفسك عن الذين تحب لذا دعني
أساعدك فحين تفتح عينيك ستجدهم محيطين بك
ولا تنسى بأنهم ليسوا معصومين من الخطأ
فحين يغلط أحدهم فيك سامحه و تذكر كل
شيء جميل فيه و إذا قمت بما أخبرك به
ستجعل من حياتك أجمل و أفضل و أسعد
بكثير ببساطه دع الخلق للخالق و أغتتم كل
فرصة ممكنة لتكون سعيدا لأننا اليوم فوق
التراب و غدا الله أعلم لذا لا ترهق نفسك
بالتفكير سوى بما شئنه إسعادك و تذكر بأن
سعادتك لن تنقص من سعادة أي شخص آخر
و كذلك العكس.

حفظت نصيحته عن ظهر قلب و أعلم أيضا بأنه
الآن في مكان أفضل برفقة عائلته التي كانت
تنتظره منذ زمن فقد توفى منذ أيام بسبب
جلطة قلبية فارق على أثرها الحياة في سن
الخامسة و الستين.

بكيه بحرقة يوم جنازته ، حتى هذه اللحظة لا
اعلم أي الأسباب كانت كفيلة بتساقط دموعي ،
فقد أكون حزين على فراقه أو سعيد لأنه

سيلقى عائلته ، أعتقد بأن السبب الثاني أقرب إلى أن يكون المسؤول ولم أجد طريقة أجعل بها نكراه خالدة سوى بذكره في هذه السطور.

"الفصل الثالث"

هل تذكرين كيف كنت أعشقتك أعلم بأنك إلى
الآن غير مُصدقة أنني استطعت التخلي عنك و
مسحك من قلبي لأدفن ذكراك بين دفتي هذه
الرواية ، لست متأكدا ما إن كنت قد أحببتك أم
أنك ألقيتي علي سحرك مع العلم أنك لا
تملكين من الجمال شيئا ، و مع كل ما بيننا
من فوارق أحببتك لكن لم تستحي ذلك الحب.

دعيني أتحدث لك عن إحدى المرات التي دار
فيها نقاش طويل بيني و إبراهيم ليتسنى لي
الوقت حتى أستجمع ما تبقى من ذكرياتنا التي
سأرميها معك في مهب الرياح.

بدأ النقاش بسؤال طرحه أحد أعضاء رابطة
القراء التي ننتسب لها و كان السؤال كالتالي :
الفقر و التشرد هما ظاهرتان يلاحظ المجتمع
نموهما المتسارع و للأسف الشديد أغلبية
المتسولين من الأطفال و المراهقين و الأسباب

شبه مجهولة ، فأرجوا من أحد المنتسبين أن يعطينا الشرح المنطقي لهذه المشكلة.

وقف إبراهيم بقامته الطويلة قائلاً : للأسف نسبة المتشردين في بلادنا تزداد يوماً بعد يوم ، أبرز أسباب تلك الظاهرة ما يسمى بالتسرب المدرسي لدى الأطفال المنتمين للطبقة الهشة من المجتمع والتي لا تتمكن أفرادها من تدريس أبنائها لينتهي المطاف بتشغيلهم ، وفي بعض الأحيان هناك عائلات تفعل العكس وتعلم أبنائها السرقة لنخرج بخلاصة مفادها أن بعض الأسر هم المسؤولون عن تنامي تلك الظاهرة لدى الأطفال و المراهقين.

رفعت يدي مع أن كلامه كان مقنعا إلى حد ما ، افتتحت حديثي : لا أوافق على كل ما قلت فالأهالي يتحملون بعض المسؤولية لكن التسول لا يقتصر على الأطفال فقط بل هناك راشدون يتسولون أيضا ، قد قربتنا من الصورة ولكنها لم تكن مكتملة لأنها وصفت حال الأطفال فقط و نسيت عن البالغين الذين تتجاوز نسبتهم في معدل التسول و التشرذم أربعين في المئة مع

العلم أنها نسبة معتبرة ، و السلطات قد اتخذت إجراءات كإعطاء كل متشرد مبلغ من المال في نهاية كل شهر ، أما النسبة الكبرى من المتشردين لم يحبذوا ذلك القرار و السبب ربما سيفاجئك فهو دخلهم اليومي فقد قمنا بتجربة أنا و مجموعة من الأصدقاء الذين يمتلكون الوراقات (محال تصوير الأوراق) و اكتشفنا بأن الدخل اليومي لكل متسول هو خمس مئة أوقية في أسوء الأحوال ، توصلنا لذلك بكل سهولة لأن المتسولين يأتون إلى أصحاب الوراقات لاستبدال العملات بالأوراق المالية و هذا ما يقودني إلى القول بأن التسول أصبح عادة عند نسبة كبيرة من المتسولين و لذلك سلبيات أخرى وهي تشوية صورة المدن و عدم سلامة المتسولين فهم معرضون لحوادث السير التي لا تحمد عقباه.

قال إبراهيم و علامات الثقة مرسومة على وجهه بكل احترافية

أنت إذا تتهم المتشردين بالرضى عن فقرهم.

ليس هذا ما قلته أنت تفهم الأمور دائما بالعكس
حين أتحدث.

إذا اشرح لنا قصدك لأن الصورة لم تتضح بعد.

أجبتة بثقة لا متناهية : بكل سرور سأشرح
الموضوع من منطق علم النفس ، لا يوجد
شخص فقير بل شخص مؤمن بالفكرة أي
الفقر لذا يعمل عقله الباطن على تنفيذ ما يفكر
به ، و لتبسيط الموضوع هم أشخاص مؤمنون
بحتمية فقرهم مع أنهم يستطيعون عكس الفكرة
من الفقر إلى الغنى ، مع ذلك لا يفعلون و
السبب يرجع إلى عدم تعلمهم فكيف بشخص لم
يفتح كتابا واحدا في حياته أن يكتشف أسرار
العقل الباطن.

قال أحد الحضور مستنكرا.

بإمكاننا إذا الجزم أن التعليم يلعب دورا مهما في حياة الإنسان حتى و إن كان فقيرا ، سيحاول إيجاد طريقة مشرفة و صحيحة لتحسين وضعه المادي و زيادة دخله.

نعم هذا ما كنت أرمي إليه فلا يمكن أن نقضي على الفقر و التشرذم سوى بالعلم و المعرفة.

كانت تلك هي الكلمات الأخيرة التي قلتها قبل أن ينتهي ذلك النقاش و ينصرف الجميع.

دعيني أعترف لك بشيء و هو أنني في الأصل لم أحببك بل كنت معجبا بضحكتك التي سحرتني قبل أن تمضي الأيام لأحبك تصييري نوعا من الإدمان بالنسبة لي ، لطالما بحثت عن سبب اصابة المحب بالعمى حين يحب ، و بفضلك عثرت على الإجابة .

فحين نحب نصاب بنوع من العمى يشبه لحد ما عمى الألوان لأنه يعمينا عن كل تلك التصرفات و العادات السيئة التي يقوم بها المحبوب ، هناك أشخاص لشدة حسن نيتهم

التي عفى عنها الزمن يقولون " لا كرامة بين العاشقين " و المشكلة أنني عكس ذلك فإذا لم تكن هناك كرامة بينهما ليذهب جبهما إلى الجحيم و كيف بشخص أن يدفن الكرامة و عزة النفس لأجل شخص سيتخلى عنه في أقرب فرصة ؛ بالله عليكِ أكنتِ تظنين أنني لم أتوقع يوماً أن نفترق دعيني أخبركِ بشيء تجهلينه هو أنني لطالما انتظرت اللحظة التي سنفترق فيها لأدفن الذي أصابني بالأرق و العن الحب بعد حبكِ .

لعلكِ إلى الآن غير مقتنعة بهذه الكلمات التي انقضت لكن صدقي أنها جنازة حبنا ، ركزي على الصفحات المقبلة بتمعن كما أفعل لأن لأنني لن أتذكرها بعد اليوم و ربما قد تكون قصص الأستاذة عائشة و شيخ حارس العمارة قد أثرت فيكِ (هذا إن كان لديكِ مشاعر أصلاً) لكن قصصهم لا تضاهي هارون الذي حُرِم من كل شيء.

سأعود بكِ إلى بداية قصته حين ما كان طفلا له عشر سنوات يعيش مع والدته و زوجها فقد توفي والده قبل ميلاده بأسبوع لذا عاش فاقدًا لحنان والده المتوفى و أمه التي كانت مشغولة بتربية أبنائها التي نسيت بشكل ما أنه منهم ، مع مرور الزمن قرر زوج والدته التخلص منه و الطريقة المثلى كانت في إرساله إلى إحدى المحاضر المتواجدة في المنطقة الشرقية من البلاد حيث لم يكن له هارون لا صديق أو قريب حتى ينتهي به المطاف وحيدا .

في صباح ذلك اليوم الذي يمثل نقطة التحول في حياة هارون أيقظه زوج والدته للاستعداد للسفر مع العلم بأن تصرفاته لم تكن طبيعية فقد كان يعامل هارون بكل لطف و المسكين لم يلاحظ ذلك لأنه لا يزال يتمتع ببراءة الأطفال التي لا يشك صاحبها في شيء ، سافرا عند الساعة العاشرة و سبعة و أربعين صباحا ليصلا أخيرا إلى المحاضرة المنشودة في الرابعة و النصف أي قبل صلاة العصر

بحوالي نصف ساعة بعد تجاوزهما سور المحضرة و في الطريق المؤدي إلى الغرفة الرئيسية المخصصة للأستاذ المحضرة رأى أطفالا في نفس عمره و آخرين يكبرونه بقليل كانوا مختلفين في كل شيء الألوان و الأشكل و الثياب لكن هناك قاسم مشترك بينهم هو نظرات الحرامان التي عرفها منذ أن رأى انعكاسه في المرأة قبل ؛ و بعد دقائق قضاها زوج والدته في الحديث مع أستاذ المحضرة قدمه إلى ذلك الرجل الذي لا ترى في وجهه سوى علامات الغضب و قبل أن يودعه اعطاه وعدا بأنه سيرجع مع نهاية الشهر ليأخذه إلى المنزل.

مضت الأيام بسرعة لكنها كانت طويلة جدا بالنسبة لهارون فقد عاش فيها المعاناة بمعنى الكلمة لأن أستاذ تلك المحضرة في الحقيقة ليس بأستاذ بل هو محتال و يجبرهم على التسول و في المقابل يعطيهم أقيمت من الخبز و العدس و بعض الحليب ، حين يمتنع أحدهم عن الخضوع لأوامره يُضرب إلى درجة فقدان

الوعي و يُعَلق من رجليه على العامود ليكون
عبرة للآخرين لم يظن هارون بأن هناك
شخصا يستغل الأطفال بهذه القسوة و أمله كان
في عودة والدته و زوجها ليأخذه من هذا
المكان ، لكن الأيام انقضت و تلتها الأسابيع
ثم الشهور، لم يأتي فيها أحد للسؤال عنه .

فقد الأمل و تأكد من أن عائلته تخلت عنه و
للأسف لم يستطع أن يتناسى عن الموضوع
مع أنه حاول مسح ذكرى عائلته و بدأ في
التخيل لو أن والده الحقيقي كان حيا لما
تعرض لكل هذه المشاكل والصعوبات ، واصل
التعايش مع الروتين الجديد فقد كان يبدأ في
الصباح الباكر بعمل المهام الموكلة إليه و
في الظهرية يبحث عن الصدقة و لا يفكر في
العودة سوى حين ما يعثر على المبلغ الذي
أمره الأستاذ المحتال بجلبه لأنه إذا لم يفعل
فسيعاقب ، و استمر الوضع هكذا حتى تعرف
على إسلامو و حسن ، قبل ان تتوطد صداقته
معهما ، ليدعم كلهم الآخر .. أظن بأن السبب

في ذلك يرجع إلى تشابه قصصهم و كيفية تخلي أسرهم عنهم .

الله جمعهم ليكمل كل منهم الآخر ، هكذا مضت الأيام ليعيشوا لحظات لن ينسوها أبدا فقد لعبوا و عوقبوا و ضحكوا على أسخف الأشياء معا ؛ و بعد خمس سنوات قضاها هارون في المحضرة (كما يزعم صاحبها) قرر الهرب و التوجه إلى العاصمة نواكشوط بعيدا المحتال الذي يدعي أنه أستاذه ، أخبر حسن و اسلمو بالخطة التي سيتبعون للهرب قبل أن يقدم كل منهم مدخراته و يجمعوها ليدفعوا أجرة باص السفر كل ما كان يهم عندهم هو الخروج من تلك المذلة و العذاب الذي يعيشون فيه منذ سنوات.

بعد شهرين من التخطيط و المراقبة قرر الفتية الهرب عند ظهيرة ذلك اليوم فحين يخرجون للبحث كعادتهم عن الصدقة التي فرضها عليهم المحتال سيذهبون إلى أقرب محطة و يستقلون أول باص ذاهب إلى العاصمة ، و للأسف لم يجدوا من يأخذهم فهم لا يملكون أي بطاقة

تعريف أو أوراق مشابه لها لذا كان عليهم السير بالأقدام حتى يصلوا إلى العاصمة، كان الوضع مأساوي لأنهم يفضلون الموت في الطريق عن العودة إلى المحتال ، و استمروا في السير حتى ألتقوا بسائق شاحنة أخذهم بالمجان إلى وجهتهم فهي على دربه .

بعد عناء دام لساعات وصلوا إلى العاصمة التي يخيم عليها ستار الليل لكنهم صاروا الآن متشردين بلا أسر و لا معارف ، و يقضون لياليهم على جنبات الطرق أما في نهارا يعملون على غسيل السيارات و حين لا يتوفر العمل يسرقون كي لا يموتوا من الجوع ؛ شاء الله أن يقبض على حسن حين كانوا يسرقون بعض ثمار المانغا من أحد الباعة المتجولين و من يومها لم يسمعوا خبرا عن صديقهم هكذا بقي هارون و اسلمو بمفرديهما يكافحان للعيش يحملان عهدا قطعاه على عاتقيهما بعدم السرقة من جديد .. واصلا العمل في مجال غسل السيارات و تمكنا من جمع بعض النقود ليستأجرا غرفة رخيصة الثمن كانت تناسب

حالتهم و بعد يوم حافل وجداهما و انتقلا إليها
في مساء نفس اليوم .

استكملا العيش و الاعتماد على نفسيهما من
خلال غسل السيارات و حمل الامتعة و أعمال
أخرى كانا يقومان بكل أنواع الأعمال المتاحة
ما عدى التسول و السرقة و سارت الأمور
على أحسن ما يكون إلى أن جاء اليوم الذي
تغير فيه مجرى حياة هارون و اسلمو حين
كانا في موقف الغسيل قبل أن يركن رجل ما
عربته أمامه و طلب منهما غسل سيارته كان
مظهره يوحى بأنه ثري فعطره الفواح يبوح
بما لديه من مال ، بعد أن ترجل ذلك السيد
من سيارته تبعه مراهق في نفس سنهما و
الغريب أن وجهه لم يكن غريبا عليهما لأنه
يشبه حسن إلى حد كبير و لكن هناك فرق
فهذا المراهق على ما يبدو متعلم و مثقف
على غرار صديقهما حسن ، لم يوليا الأمر
اهتماما كبيرا ؛ غسلا السيارة و دفع لهما
الرجل بسخاء و انصرف ، لكن صورة ذلك
المراهق الذي معه لم تفارق مخيلة هارون

إلى درجة أنه كان يطرح على نفسه بعض الأسئلة و في الوقت يجيب نفسه " هل كان ذلك المراهق نفسه حسن؟ " ، كان يكرر نفس سؤال و بعد لحظات قال في نفسه " لماذا أفكر به إلى الحد" تذكر أيامهم في المحضرة و تبسم نصف ابتسامة قبل أن ينهض و يتوجه إلى الزبون المقبل .

بعد انقضاء اسبوع على لقائهم بذلك المراهق ، عادت السيارة و هذه المرة لم ينزل منها سوى ذلك المراهق المشبه بحسن ، ركض ذلك المراهق نحوهما و عانقهما بدون سلام و لا كلام ليعقب بالكلام قائلا " لقد أصاب حدسي فلم يحدث لكما سوء أو ما شابه " ، الشايبان الآن في حيرة فالأمور قد دارت بسرعة هائلة لكنهما تيقنا من عودة الصديق و الأخ الغائب و فرحا كثيرا لذلك ، لم يدع لهما حسن مجالا للتفكير و استأنف الحديث من جديد " في المرة السابقة حين اتيت إلى هنا و رائيتكما لم أستطع التكلم لأسباب خاصة و المشكلة الأكبر كانت في تواجد أبي بالجوار ! " ،

سأله هارون بدون فهم باد على الوجه " أبوك " ، وكيف ذلك ألم تقل لنا قبلا أنك تنتمي إلى أسرة فقيرة " ؛ أجابه حسن بالقول " دعاني أحكي لكما ما جرى لي بالضبط ففي ذلك اليوم و حين قبض علي ذلك البائع المتجول لم يحاول الذهاب بي إلى مركز الشرطة بل قال لي لو أردت الفواكه ما كان عليك سوى أن تطلب بدأت أبكي لأنني شعرت بالذل فحكيت له قصتي و الطريقة التي تخلت بها عائلتي عني ، رثف لحالي و أخذني إلى دار رعاية الفقراء و هناك اعتنوا بي جيدا إلى أن جاء اليوم الذي تبناني فيه واحد من أكبر رجال الأعمال يدعى يحيى بن كابر و أنا مدين له بحياتي فد أدخلني إلى أرقى مدارس تعليم للغات ، لكن مشكلته الوحيدة هي الصرامة الزائدة عن اللزوم لذا حين أتينا إلى هنا ذلك اليوم لم انبس بكلمة كي لا يغضب فقد كان متوترا و مشغولا كثيرا في تلك الفترة أو ما شابه و انتظرت إلى أن أعتدل مزاجه لأخبره بأمركما و قد وافق على أن يرسلكما إلى دار الرعاية و يدفع

لكما لتعلم اللغات ، والآن اجمعا حقائبكما
سنذهب إلى هناك".

لم يدري هارون إن كان سعيدا بعودة الأخ
الغائب أم أنه أسعد لخروجه أخيرا من هذا
البؤس الذي كان يعيش تحت ظله ؛ جمعا
حاجياتهما الضرورية و ركبا في المقاعد
الخلفي بينما ركب حسن في المقعد الأمامي .

حين وصلوا إلى دار الرعاية ودعمهم حسن و
وعدهم بزيارة في أقرب وقت ممكن ، حين
تجاوزا البوابة الحديدية للدار وجدا سيدة في
الأربعين قصيرة بعض الشيء لون بشرتها
أقرب ما يكون إلى الأسمر الغامق كانت مبتسمة
بشكل دائم ما أثار ارتياح المراهقين بدأت
الحديث معرفة عن نفسها .

مرحبا، إسمي هديل مديرة الدار .

إسمي هارون و هو إسلامو تشرفنا بمعرفتك سيدتي.

اعتبرا نفسيكما في المنزل فنحن هنا نشكل عائلة واحدة و حين تحتاجان لشيء اخبراني ، لن تشعرا بالوحدة من جديد .

دار الرعاية كبيرة للغاية و تحوي الكثير من الأطفال بعضهم في نفس سن هارون و إسلامو و آخرون يصغرانهما ببعض السنوات أما المميز فيهم جميعا هو روح الدعابة و الابتسام المستمر كانت أجواء السعادة تحيط بالمكان و بعد أن تجولا في الدار أعطتهما المديرة ثيابا جديدة هدية من السيد كابر الرجل الذي تبنى صديقهما حسن ، و بعد حمام طويل غير هارون ثيابه و نظر إلى المرأة ليرا انعكاسه الجديد الأول فقد تغير شكله للغاية و صدق من قال ما أبشع الفقر و أجمل الفقراء ، بدأ هارون حياة جديدة فدار الرعاية مجهزة بفصول دراسية و ملعب صغير لكرة القدم أما المكان الذي أحبه هارون فقد كان القاعة الخامسة هي متوسطة الحجم و تحوي الكثير من الكتب في مجالات لم يسمع عنها يوما كالفيزياء الكونية و الميتافيزيقا .. مع الأيام تعود على

المكان و اكتسب احترام و صداقة الكثير من
الزملاء .

بعد انقضاء ثلاثة أشهر على تواجد هارون
في دار الرعاية التقينا في اليوم الثقافي الذي
أقامته المديرية حيث كنت من الذين حظوا
بالفرصة للتحدث مع الشباب و المراهقين المقيمين
هناك .

كان المكان مليئا بمكبرات الصوت و يثير في
النفس بعض الخوف لأن الكلام أمام هذا الحشد
ليس بالأمر الهين على حسب ما أذكر تماكنت
أعصابي و بدأت الكلام غير عابئ بكل العيون
المتقابلة معي " مرحبا لمن لا يعرفني إسمي
... كاتب و مدرب في التنمية البشرية ، كلي ثقة
بأنكم قد واجهتم المشكلات من صغركم و لم
تعيشوا طفولتكم كما يجب لذلك السبب سأطرح
عليكم السؤال الذي لم يطرحه عليكم أي
شخص من قبل : هل أنتم راضون عن حالكم
؛ الكثير منكم تمنوا الموت ربما و هم غير
دارين بأن الإنسان حين يتوقف عن صياغة
أهدافه و التخطيط لأحلامه و السعي ورائها ،

يموت ليس واقعيًا بل معنويًا و الثانية أصعب من الأولى فهو حي يرزق أمام الناس و في داخلك نفق من الخراب ، اليوم سأحدثكم عن الطموح و يا ترى هل هو جريمة سيحكم علينا بالإعدام إذا اقترفناها؟ ، الإجابة طبعًا هي لا لذا ما لمانع من الطموح و ما الفرق يا ترى بيننا و بين من خلدهم التاريخ مثل أينشتاين و غيره .. ، لو فيكم من يرى بأن تحقيق الطموحات مستحيل ليرفع يده".

رفع جميع المتواجدين أيديهم حتى المديرية و الضيوف .

استكملت حديثي " السر الذي يجهله الكثيرون و الذي يصنع الفرق بين الناس هو العقل الباطن و خصوصًا أحد قوانينه المسمى بقانون الجذب و بمعنى الآخر حين تفكر في شيء فسيرجع إليك من نفس نوعه أي أنك حين تفكر في تحقيق الأمور الإيجابية فلن تحقق سواها و كذلك العكس ؛ أما الشرط الوحيد لعمل هذا القانون هو التضحية بكل ما من شأنه أن يساعدنا من وقت و تعلم خبرات جديدة

و البحث ... حين نسعى إلى تلك الطموحات سنصل في نهاية المطاف بعد التوكل على الله عز وجل و العمل المستمر ختاماً كل ما يسعني قوله هو أن تحلموا و اطمحوا فلا شيء مستحيل ما دمتم مؤمنين بالله و مستعدين لبذل الغالي و النفيس في سبيل الوصول إلى أهدافكم " .

شعر هارون بطاقة متأججة في جميع أنحاء جسده لأنه وجد ما كان يبحث عنه بعد أن قضى فترة في البحث عن هدفه .

الآن هو يعرق ما يريد يعرف طموحه و من خلاله سيزرع الأمل في الخواطر المحتاجة إلى جبر ، و يبقى السؤال الذي لم يجد له إجابة وهو كيف يبدأ ؟ .

بعد أسبوع من زيارتي تلك عدت فقد كان لدي بعض الكتب التي أردت التبرع بها لصالح الدار ، بعد أن أنهيت ما علي توجهت إلى المخرج و استوقفني صوت ذاك الفتى المتجه إلي بسرعة قال بأنفاس متقطعة .

مرحبا سيدي ، أعجبنى ما قلته الأسبوع
الماضي و عرفت هدفي في الحياة .

تشرفنا ، أرجوك نادني باسمي بدلا من سيدي
، أهنتك و ما هو هدفك ؟ .

أريد أن أكون مثلك و أساعد أكبر عدد من
الناس و أرشدهم إلى التغيير.

يا أخي ليس هناك شيء صعب بحيث لا تستطيع
جعله أكثر سهولة عن طريق كيفية تعاملك معه
فالأمر يعتمد عليك و أنت وحدك من تستطيع
جعل الأمور سهلة أو صعبة ، و تأكد من
أنني سأدعمك حتى تصبح أفضل مني في هذا
المجال .

شعر هارون بالفرح و خصيصا حين وعدته
بأن أساعده ، لذا رتبته معه جلسة اسبوعية
داخل المكتبة الملحقة بدار الرعاية و في كل
مرة أجلب كتب أطلب منه أن يلخصها في
مابعد ، و يعبر لي عن وجهة نظره لها بأدلة
منطقية مبنية على حقائق قاطعة ، و بعيدا
عن الكتب كنت أشرح له دائما الكثير عن

التنمية البشرية ، أتذكر بأن أول كتاب أهديته
له كان تحت عنوان (مميز بالأصفر) ..

هو ذكي للغاية و يستحق كامل الاحترام و بعد
أن أخبرني بما تعرض له في طفولته صرت
أعتبره أخا لي و أصحابه معي في جولاتي
بين دور الرعاية .

"الفصل الرابع"

كلي ثقة من أنكِ تتساءلين عن السبب الذي
دفعني إلى التخلي عنكِ ، مع أن الإجابة أمامك
و هي عدم قدرتي على تحمل تصرفاتكِ و
أكاذيبكِ .

لم تعودني تسوين شيئاً فقد ضاعت قيمتكِ
بالنسبة إلي ، و أصبحتِ ذكرى كانت في يوم
من الأيام جميلة و لم يعد اسمك سوى شبح
مزعج يصفو من حولي ليزعجني كلما سمعته
حتى و إن لم تكوني صاحبتة لأنني كرهتكِ
و كل ما لكِ به علاقة ؛ في الماضي القريب
كنتِ معشوقتي و فاتنتي أما الآن فلا حاجة
إلى وصف مدى كرهني لكِ فأنتِ أدري به
و بالله عليكِ لا تمثلي دور البريئة و تتناسي
عن خيانتكِ اللعينة.

أتذكر حين ضاق صدري للحياة و اضطررت
إلى الاتصال بإبراهيم لأنه الوحيد الذي آمنه
على أسراري ، رن هاتفه مرتين قبل أن
يجيب قائلاً .

لا يمكنك الاتصال إلى حين أكون مشغولاً .

فل تذهب إلى الجحيم ليس لدي وقت لمزاحك
الآن أريد أن نتحدث وجهًا لوجه لدي بعض
الأخبار لك .

تمالك اعصابك يا رجل ، ما الأمر .

نلتقي عند مقهى العم جلال و سأخبرك بكل
شيء .

لا مشكلة بعد عشر دقائق نلتقي هناك .

قطعت الاتصال و خرجت من الباب الجانبي
للمنزل لأنه أقرب للسيارة ، ركبت و أدرت
المحرك و اتجهت إلى المقهى لم تمضي دقائق
قبل أن أصل و أجد إبراهيم جالسًا يقبل في
هاتفه .. أخذت مقعدًا و جلست قبالة .

لم يتركني أتحدث أو حتى ألقى السلام ، بادر
بالحديث .

ماذا أصابك يا رجل هل أنت بخير ؟ .

لقد خانتني السافلة .

ههههه .

ضحك إلى أن أوشك على السقوط كنت سألكمه
لولا أنه قال

هذا ليس بالشيء المهم هناك الكثير من النساء
غيرها ، على ماذا تنوي الآن .

لقد اتصلت علي مرات ولم أحب في البادئ
لكن بعد محاولات أجبت على الاتصال و
أخبرتها أن تذهب إلى الجحيم و أنني لا أحب
العيش مع الخونة .

أحسنت الصنع ، و الآن ماهي مشكلتك؟ .

أنا غاضب لأنني كنت كالغبي و عشقتها بصدق
، و غاضب أكبر لأن خدعتها التي غلفتها
بالحب قد انطلت علي .

يا صديقي أمن بالقسمة و القدر لأن كل شيء
زال منك هو في الحقيقة زال عنك و ربما كان

شرا لك ، كل موقف تمر به ما هو سوى
درس عليك التعلم منه .

بقيت هادئا ولم أقل كلمة بعد آخر ما سمعته
إبراهيم ، كلماته جعلتني أستعيد البعض من
ثقتي في نفسي و أطوي الصفحة إلى الأبد ..
خيم الصمت على المكان قبل أن يقول إبراهيم.

ألم يحن الوقت لتكف عن النَّحِيط.

ما معنى النَّحِيط

هو البكاء الذي يختلج الروح و لا يتجاوز
الحجرة.

ضحكنا كثيرا بعد ما قاله و غيرنا الموضوع ،
قبل أن أودعه و أرجع إلى المنزل .

مرت الأيام و طويت معها صفحتك قبل أن
أحذف كلمة من قاموسي فلا فائدة منه بعد
ما لقيته منك أو هذا ما كنت أظنه ، كنت
دائم المطالعة و أتردد على المكتبة المعتادة كلما
أتحت لي الفرصة لذلك لأنها المكان الوحيد

الذي أجد فيه أشخاص يشاركونني نفس الشغف
و الطموح .

" الفصل الخامس "

كان جميع المتواجدين في القاعة ينصتون بانتباه شديد إلى ذلك الشاب الواقف على المنصة ، لنفعل مثلهم و نستمع إليه.

" المتشائم لا يرى في كل فرصة سوى صعوبة بينما المتفائل فلا يرى في كل صعوبة سوى فرصة لذا لا تكونوا مثل المتشائمين بل حاولوا أن تصبحوا مثل المتفائلين و انظروا إلى الإيجابيات بصفة خاصة ، لن أقول بأن عليكم التغاضي عن السلبيات بل تشكلوا منها عامل مؤثر لأنها من مسببات الفشل ؛ حاولوا من الصفر هذه رسالتي إلى المجتمع ، لأن النجاح لا يأتي في لمحة عين ولا دفعة واحدة بل بالتدريج لذا سيروا خطوة بخطوة حتى تصلوا لأهدافكم .. هل من شخص سأل نفسه عن معنى حياته و أهدافه فيها؟، ما اریده منكم هو البحث عن الإجابة و أنتم وحدكم من تستطيعون الوصول إليها ، كل شخص على وجه هذه الأرض قد خُلِقَ لهدف لا يعلمه إلى الله .

لذلك أكرر من جديد أطلبوا العلم من المهد إلى اللحد فلن تخسروا شيئاً بل العكس

ستكتسبون خبرات خبرة و ثقافة ترفعكم أمام
أعين الناس ، دائما ما نقتل أحلامنا حين نقول
على سبيل المثال بأن هذا الأمر مستحيل ، من
أجل ذلك يجب علينا تغيير كلمة مستحيل إلى
ممكن فلا شيء مستحيل فما دمنا نتسلح
بالإيمان و الإرادة نستطيع أن نحقق ما نريد
؛ الغناء و الرسم و الشعر ... كلها مواهب لا
يملكها الكثير و في نفس الوقت ليست حkra
على القليل و إذا كان أحدكم يمتلك موهبة
فعليه تطويرها و تنميتها حتى و إن وقف
الجميع في طريقكم عليكم بعدم الاستسلام ،
دافعوا عن تلك المواهب إذا كنتم تحبونها
حقا و مع الأيام سيكون الجميع في صفكم
فحين تصلون إلى القمة بعد تضحيات لن
تجدوا للمحيطين أي أثر ، و أنا أقدم هذه
النصائح أرجوا منكم أن لا تأخذوا عني
صورة كشخص مثالي لأنني أوجهكم إلى
الدرب الأمثل و هذا هو عملي ، العيب ليس
في أن نخطأ بل في عدم الاعتراف بذلك
الخطأ و محاولة إصلاحه ، قال الفنان الكبير
بابلو بيكاسو : قالت لي أمي عندما تصبح جنديا

ستصل إلى رتبة جنرال و حين تصبح معلما
ستصل إلى منصب وزير التعليم و بدلا من
كل ذلك أصبحت رساما و إسمي بيكاسو.

عندما تقرررون السير على الطريق التي اخترتم
كونوا الأفضل و لا ترضوا سوى بالتميز و
التفوق ، هل هناك مستحيل عندما نؤمن بقدراتنا؟
و الإجابة طبعاً هي لا ، احذفوا كلمة المستحيل
من القاموس و آمنوا بالنجاح قلوبكم لأنه ينبع
من عمق الروح ، و لتحقيقوا ما تسعون له
ضحوا بوقتكم و فكركم و ضعوا إرادتكم في
العمل ، لأوجهكم إلى التغيير الصحيح ليأخذ كل
واحد منكم ورقة و يكتب عليها سأقل من :
الكلام ، النقد ، التكشير ، الشك ، التأجيل ، التخوف
، تأكيد صلاحيات ، اللوم ، الانشغال بالتفاصيل ،
بناء تابعين ، طرح الأجوبة .

و الآن أكتبوا سأزيد من : المتابعة ، الاستمتاع
، التطوير ، الابتسام ، الإنجاز ، تفويض صلاحيات
، العطاء ، الثقة ، التحفيز ، التشجيع ، الانشغال
بالمستقبل ، طرح الأسئلة ، بناء قادة .

هذه الأمور قد تكون بسيطة لكنها تتحكم بحياتنا
لذا عليكم أن تكونوا دائما بجانب الإيجابيات
و لا تنسوا الابتسام دائما حتى و إن لم تكن
لكم الرغبة و ستعرفون بأنفسكم السبب مستقبلا.
وختاما شكرا على انتباهكم ، كان معكم هارون
جوب".

لقد أبهرني كثيرا بهذه المهارة التي يملك فقد
أصبح مُحاضرا في التنمية البشرية بامتياز فبعد
سبع سنوات من العمل الجاد و المطالعة أصبح
هارون من أفضل الشباب الموريتانيين في هذا
المجال مع العلم بأنه ساعد الكثير من الناس
لذلك أنا فخور به للغاية و لولا تفانيه و
إصراره لما وصل إلى ما و صل إليه .

و في طريق العودة إلى المنزل و بينما
كنت أقود السيارة فكرت في الذهاب إلى
المقهى الذي كنت أتردد عليه أيام الثانوية و
أمضي بعض الوقت هناك.

وصلت إلى الباب و حتى الآن لا يزال كما هو مع بعض التصدع في أطرافه و ذلك أمر طبيعي فالمكان يعود إلى أكثر من خمسة عشر سنة ، أول من رأيته حين دخلت كان محمود صاحب المكان على الجانب الآخر يتحدث مع أحد الزبائن ، لم يتغير كثيرا إذا استثنينا التجاعيد و الشيب .

لم أجد طاولة شاغرة فالمكان مزدحم بعض الشيء ، و بعد بحث لاحظت فتاة كانت تجلس لوحدها فتوجهت إليها.

مساء الخير .

مساء النور .

أسف على الإزعاج ، هل معك شخص .

عفوا .

بتوتر بدا ظاهرا على صوتي !

أقصد أن جميع الطاولات محجوزة و أردت السؤال ما إن كان بالإمكان الجلوس معك .

أجابتنني بخجل باد على محياها .

بكل سرور تفضل.

طلبت من النادل كأسين من الشاي واحد لي و الأنسة ، بعد دقائق من الانتظار أخرجت قلمي و تناولت إحدى المناديل كتبت عليها بخط لا يفهمه أحد سواي، حين رأيت تلك الأنسة ما أصنع قالت.

ماذا تفعل ؟ .

أكتب بعض الخواطر .

لماذا ؟ .

بصراحة لا أعلم مجرد رغبة .

هل تستطيع قراءتها لي إذا كان ذلك لا يزعجك .

وضعت القلم جانبا و بدأت في القراءة:

نظرتُ إلي و تبسّمت
لتوقظ قلبا سرايينه اشتعلت
كأن حربا بدأت من بعد فتنة أُخمدت
نظرتُ إلي و تكلمت
فكأن البشرية بعد كلماتها اختفت

جميل أعجبتني للغاية إسمي خديجة بالهاشم فنانة
تشكيلية ، و أنت ؟ .
إسمي عالي كاتب روائي و صحافي .
تشرفت بمعرفتك .
لي الشرف .

دخلنا في حديث طويل عن كل شيء و أي
شيء لم نشعر بالوقت و هو يمضي .

بعد ما يزيد على ساعة من الحديث أخذت خديجة منشفة ورقية وكتبت عليها : أتمنى أن يتكرر هذا اللقاء ، علي الذهاب الآن.

تناولت منها المنشفة و القلم لأكتب : أرجوا ذلك أيضا .

مرت أيام لم أذهب فيها إلى المقهى منذ تلك الليلة ، لذا قررت الذهاب هناك فالمكان صار يشعرنى بالحنين و الأيام الخوالي .

كنت أجلس على طاولة في ركن المقهى الجنوبي بالقرب من النوافذ المقابلة للشارع ، لم أكن حاضرا في الواقع لأنني أطالع إحدى الروايات تحت عنوان "الأربعة الكبار " لأغاثا كريستي ، و انتشلتني صوتها من بين عالمي الجميل (كما أحب أن أسميه) لأضع الكتاب جانبا قبل أن تجلس أمامي و تعكس آية الجمال (تبا لماذا أمعن النظر دائما).

لا أنكر أنني ذبت بين حدقتا عينيها ، لحظتها لم أفكر سوى في أبيات قالها شاعر يدعى جميل : هِيَ الْبِدْرُ حُسْنًا وَ النِّسَاءُ كَوَاكِبٌ وَ شَتَّانِ

ما بَيْنَ الْكَوَاكِبِ وَ الْبَدْرِ لَقَدْ فُضِّلَتْ حُسْنًا عَلَى
النَّاسِ مِثْلَمَا عَلَى أَلْفِ شَهْرٍ فُضِّلَتْ لَيْلَةُ الْقَدْرِ.

كان الحوار سريعاً ..

مرحباً أيه الكاتب .

أهلاً بك ، رسامتي .

تورد خذاها ...

أنت متملك للغاية .

أحب أن أمتلك كل شيء و خصوصاً .. .

لم أكمل بل غيرت الموضوع.

لقد مضى وقت على آخر لقاء.

معك حق ، كنتُ مشغولة للغاية منذ فترة قصيرة

في القيام ببعض الأشياء .

عذرا على التطفل ، لكن أي نوع من المهام
يجعلك تختفين لفترة .

ذلك سر و إذا كنت تريد معرفته فعليك تلبية
عودتي غدا .

لي الشرف في الحضور .

أخذت رقم حسابي على الواتس أب ..

سأرسل لك إحدائيات الموقع ، ولنلتقي عنده غدا
في الساعة العاشرة صباحا.

لا مشكلة .

و الآن علي المغادرة .

ألن تنتظري قليلا .

أنا مستعجلة للغاية ، إلى اللقاء .

إلى اللقاء .

كان الارتباك باد على طريقتهما في الذهاب و كأنها قلقة من شيء ما ، و لأكون صريحا مع نفسي بدأت أعجب بها .

حين عدت إلى المنزل توجهت إلى فراشي و باغتني النوم و هو ما لم يحدث لي منذ سنوات ، وفي الصباح أيقظني رنين الهاتف من النوم .. حين طالعت شاشة الهاتف لم يكن الرقم مسجلا لدي و كذلك لم يبدو مألوفالي ، على كل حال فتحت السماعه .. ليستوطن صوتها الرنان الفؤاد قبل الأذن .

صباح الخير يا كاتبتي العزيز .

صباح الورد.

أرجوا أن لا أكون قد أزعجتك .

لا عليك ، كنت مستيقظا منذ فترة .

هل نسيت دعوتي أم ماذا ؟ .

وكيف لي أن أنساها ، سأتي فوراً .

حسناً .

أنهيت المكالمة لأتوجه إلى دورة المياه ، أخذت حماماً سريعاً قبل أن أرتدي ثيابي بأسرع ما يكون (طبعاً مع احترام قوانين الموضة) ؛ خرجت من المنزل و عبرت الساحة الأمامية لأصل لسيارتي و أدير المحرك ..

حين وصلت كانت خديجة أمام البناية التي بدت مشابهة لمكتبة بسبب تصميمها الخارجي و حين ترجلتُ من السيارة لاحظت الكلمات المزخرفة عند المدخل " معرض للفن التشكيلي " ؛ سارعتُ باتجاهي مهرولة ليصلي عطرها قبلها كانت ترتدي فستان فاتحة الزرقة ، تركت شعرها لينسدل على كتفيها الضئيلين و أكتفت بوضع شال أبيض مزخرف على كتفيها .

قالت بنبرة مازحة .

و أخيرا وصل - العجوز الموقر .

ها أنا ذا يا حفيدتي ألن ترحبي بي .

ضحكت كما لم أرها تفعل من قبل ، و دعنتي
إلى الدخول و بينما كنا نعبر ذلك الرواق
الطويل قالت .

سأخذك في جولة قبل أن أريك هديتك و على
فكرة أنت أول زائر لهذا المعرض فلم يتم
افتتاحه بعد .

هذا شرف لي ، يا فنانتي الموقرة .

لم تقل شيئا اكتفت بالابتسام و واصلنا الطريق
، تجولنا في أرجاء المعرض بالصراحة هو
كبير للغاية ، قضينا الكثير من الوقت في
التجول ، نقف عند إحدى اللوحات و نتأمل
جمالها و نترك للصمت المهيب السلطة في

التحكم بالأجواء المحيطة بنا ؛ سعدنا إلى الطابق الثاني .

قطعنا مسافة قصيرة قبل أن نصل إلى تلك القاعة التي توقفت هي أمامها و أشارت لي بالدخول قبل أن تقول .

هذه قاعتي الخاصة وكل اللوحات المتواجدة هنا لي ، أنا من رسمتها .

لم أجب بل اكتفيت بالصمت المعتاد ! ...

ذوقها ممتاز و لوحاتها تعكس أفق أبعد من ما قد يتصور أي شخص ، بعد دقائق من الانبهار برسوماتها لاحظت لوحة مغطاة تقبع في أحد أركان القاعة لذا سألتها بنبرة مزحة .

أُتخافين عليها من السرقة أم ماذا .

لا ، كل ما في الأمر أنه ..

توقفت عن الكلام قليلا ، تم أكملت بصوت متقطع.

لقد رسمت هذه اللوحة لشخص أحبه للغاية فقد خطف قلبي منذ أول يوم التقيته فيه .

بدأت أشعر بصداع رافق تلك التساؤلات التي فرضت نفسها على دماغي و أولها كان في إمكانية كونها مخطوبة أو ربما هي محبوبة أحدهم يا إلهي هل أحب أنثى تحب غيري ، كانت هذه الفكرة تصيبني بالغضب لكن تماكنت نفسي و قلت متصنعا برودة أعصاب .

أحقا هذه اللوحة كذلك .

هزت رأسها في إشارة موافقة ، نزع الغطاء و هنا كانت الصمدة فاللوحة المرسومة هي لشباب أسمر نحيف بعض شيء يحمل كتابا

أسودا بين يديه و قد بدا مألوفا للغاية ، لأنه
أنا ! .

كانت كل تفاصيل وجهي تشير إلى التعجب و
الانبهار لذا سارعت (...) قائلة بإضراب و
خجل .

أسفة إذا كنت صريحة معك للغاية ولكنك فهمت
بالطبع ما أقصد فمنذ أول يوم عرفتك فيه ...
كانت الكلمات سريعة و متضاربة لم أسمع
منها سوى : أحبك !.

لم أجد كلمات تعبر عن ما بداخلي سوى التي
قال نزار قباني :

إني عشقتك

و اتخذت قراري

فلمن أقدم - يا ترى - أعذاري

لا سلطةً في الحب تعلو سلطتي

فالرأي رأيي
و الخيار خيارى
هذى أحاسيسى
فلا تتدخلى أرجوك
بين البحر و البحار
ظلى على أرض الحىاد
فإننى سأزىد إصراراً على إصرار
ماذا أخاف ؟
أنا الشرائع كلها
و أنا المحىط و أنت من أنهارى .

أسوء شعور قد يواجه الإنسان هو حىن يفقد
القدرة على الحب و فى أعتى أحواله ىشاء الله
أن ىبعث له شخص ىخلصه من عذاب الوحدة
، ربما ىحصل أن نخطئ فى اختىار المحبوب

لنندم لاحقا ولكن علينا تذكر بأن ذلك درس
قد دفعنا ثمنه لذا علينا التعلم منه .

" الفصل السادس "

في إحدى الأيام الربيعية كنت أعط في نوم عميق قبل أن يوقظني رنين الهاتف ، لم أنظر إلى شائنة لشدة شعوري بالنعاس بل فتحت سماعة و إذا بالغالية .

صباح الخير .

ماله صوتك هل أنت على ما يرام .

لا عليك ، نلتقي في الحديقة و سأشرح لك كل شيء.

قطعت الاتصال لتتركني حائرا بين التساؤلات التي داهمت تفكيري و مع ذلك تجهزت بأسرع ما يكون لأتوجه إلى الحديقة و قد كنت على وشك أن أدهس شخصا ما لشدة السرعة ؛ حين وصلت كانت جالسة على إحدى الكراسي تسبح في عالم الأفكار بكل معن-الكلمة

جلست بالقرب منها ، فقالت .

أسفة أعلم بأني أزعجتك ، و لكن الأمر مهم ! .

هل نسيتِ ما كنتِ تقولين : أنا أنتَ و أنتِ أنا .

حاولت رسم بسمه على وجهها لكن حزنها كان
تأثيره أكبر ، تنهدت بعمق وقالت .

سأقوم بعملية استئصال ورم في الثدي ، و نسبة
نجاحها ضعيفة للغاية لذا أردت توديعك قبل ..

لم تكمل كلماتها بل انهمرت في البكاء ، و
احتضنتها حتى هدأت ، لتكمل .

أرجوا أن تعرف أنني أحبك .

يا عزيزتي لما التشاؤم ثقي في قدر الله ،
ستتجاوزين العملية إن شاء الله ، على فكرة
سأنتظرك يا حبيبتني .

احتضنت وجهها لتختفي بين كفي و أمسح دموعها
التي تطعن روحي طعنا ، عادت للبكاء من جديد
، لم أقل شيئا احتضنتها فالكلمات لم تعد تعبر
معنى الكلام .

ستكونين بخير حبيبتي.

أمضينا بعض الوقت معا قبل أن أودعها ، و
أعد حبيبة قلبي بأن أتصل بها قبل العملية .

بعد اسبوع ..

قبل الدخول إلى القاعة قررت أن أتصل بفاتنتي
لاكن هاتفها كان مغلقا و تذكرت بنت عمها
لذا اتصلت بها .. رن الهاتف مرتين وفي الثالثة
أجابت على اتصالي.

نعم

مرحبا ، آسف على الإزعاج هل يمكنني التحدث
مع خديجة .

لا مشكلة أمهلي دقيقة .

كانت تلك أطول لحظات حياتي إلى أن سمعت
صوت محبوبتي.

عزيزي

آه ، لو تدرकिन ما .. (الباقي خاص تخطى هذا
السطر).

لا تفلق يا حبيبي كل شيء سيكون على ما يرام .
إلى اللقاء عزيزتي .

إلى اللقاء .

انتهت المكالمة و أخذت نفسا عميقا قبل أن
أصعد على المنصة فاليوم لدي محاضرة في
التنمية البشرية علي إلقاءها أمام ألفي شخص ،
حين صعدت إلى المسرح كانت جميع الأضواء
موجهة نحوي .

استجمعت أفكارى و ابتدأت الحديث : بعض الناس
يقولون بأن القناعة كنز لا يفنى بينما هم يملكون
كسلا لا يفنى فهم يبررون فشلهم بقناعات
شخصية و ما إلى ذلك ، حين يسعى الإنسان
للنجاح فعليه أن لا يهتم بالانتقادات التي يتلقى
عن أفكاره و طموحاته فما دنا نؤمن و

نسعى فإن سنصل إلى هدفنا حينها سيكون ذلك مسك الختام و أهم ما على الشخص معرفته هو أن منتقديه بالأمس هم من سيكونون المهنيين بالنجاح ، لماذا كانوا يعارضونني في الماضي ؟ .

الجواب سأتركه لتكتشفه بنفسك ، في شبابك فرصة لتكوين مستقبل متميز و كذلك العكس و على فكرة كل إنسان يملك مجالاً سيبدع فيه كل ما عليه فعله هو اكتشاف ما يجب ؛لماذا لا نرتقي بأفكارنا من أجل تحقيق أحلامنا؟.

صعد مقدم الأمسية و قال : شكرا لعالي و أرجوا أن تصفقوا له بحرارة .

ودعت الجمهور ، و قبل المغادرة التقطت مع بعضهم صور تذكارية التي كانت تعني لهم الكثير ربما يرجع السبب في ذلك إلى أنني على غرار بقية الكُتاب لا أظهر كثيراً على الشاشات .

بعد خروجي من القاعة توجهت إلى سيارتي و فتحت الباب لأجلس أمام المقود و اتصل

بينت عم خديجة ، رن الهاتف مرة قبل أن
تفتح السماعه لأغتنم الفرصة في الحديث .

هل من جديد كيف أحوالها.

يا أخي ابدأ بالسلام و من ثمة اسأل عن ما شئت.

شعرت ببعض الإحراج فمعها حق .

أسف .

لا عليك ، هي الآن بخير وقد نجحت العملية
بشكل حسب كلام الطبيب الجراح.

كان ذلك أجمل خبر سمعته ، شكرت ابنت عمها
وانهيت المكالمة كنت في وضعية لا توصف لم
أفهم نفسي حينها لكني متيقن بأن شعوري كان
يعكس ما أنا فيه من سعادة فمحبوبتي ستبقى
إلى جانبي .

شغلت محرك السيارة متوجها إلى المشفى الذي
كانت تقبع فيه أميرة قلبي ... وصلت بعد

دقائق و صعدت إلى الطابق العلوي كانت وجهتي الغرفة س ٤ التي تؤوي حبييتي ؛ في الرواق و أمام الغرفة كان أخوها الأكبر يتحدث مع أحد الممرضين ألقيت عليه التحية و طلبت منه أن يطلب لي السيدة أم خديجة .

خرجت من الغرفة سيده في الخمسين من العمر تحيط بها هالة مقدسة من الوقار و الحنان .

أسف على إزعاجكم يا خالة و لكن أرجوا منك أن تعطي هذا الظرف لخديجة حين تستيقظ .

ناولتها إياه و رجعت من حيث أتيت .

بعد مرور أسبوعين على العملية .

كانت بطلتنا في غرفتها بالمنزل مستلقية على السرير تتابع الفيلم على التلفاز قبل أن تطرق أمها الباب و تدخل مبتسما كعادتها و تقول .

كيف حال صغيرتي الحلوة .

بخير .

الحمد لله ، نسيت أن أعطيك هذا الظرف لقد
قدمه لي شاب منذ أسبوعين وقال بأنه لك .

توقفت الأم قليلا ثم قالت بمكر

كان يبدووا في أعلى قمم السعادة .

لم تفهم شيئا بل تناولت المغلف من أمها
لتخرج الأخيرة من الغرفة و تتركها لوحدها ،
حين فتحت المغلف وجدت رسالة مكتوبة و قالت
في نفسها من هذا الذي سيرسل لي شيئا كهذا
(هي تحب هذا النوع الكلاسيكي) الرسالة كانت
كالتالي :

عزيزتي خديجة

قبل كل شيء أريد أن تعرفي مدى سعادتي بنجاح الجراحة ، و أريد أن تعلمي مدى حبي و احترامي لكِ لذا و بدون مقدمات أريدك أن تكوني زوجا لي .

الكلمات لم تسعفني حتى أعبر عن كل ما بخاطري ، لقد كتبت هذه الرسالة بكل ما أملك من مشاعر صادقة .

المخلص عالي والد داه

هذه الرسالة هزت مشاعر خديجة ، بدون تفكير أخذت الهاتف و اتصلت برقم من سكن فوادها

رن الهاتف قبل يجيب .

عزيرتي

يا أألى ما أملك ، لقد قرأت الرسالة ، و أقبلك شريكا
لي مدى الحياة.

ما....

استعدت القليل من التركيز أكملنا المحادثة
(الموضوع بيني وبينها ، يعني شخصي).

بعد سنة من ذلك تزوجنا .

" الفصل السابع "

كانت حياتي مع خديجة أشبه ما تكون بالحلم
خصيصا أنها ادخلت على حياتي البهجة ، الأولى أي
هي ، و الثانية ابنتنا التي ورثت كل تفاصيلها.

بينما كنت أحلم صغيرتي هدى رن هاتفي المحمول
، لأجيب.

ألو.

أرجوا ان لا أكون قد أزعجتك.

حين سمعت الصوت شحب وجهي أيعقل أنها هي ،
ماذا تريد بعد كل هذه السنين و لماذا تتصل في
هذا الوقت بالتحديد.

لا عليك ، أنا مصغ لك

أريد مقابلتك لدي مشكلة لا يمكنني شرحها في
الوقت الحالية ، نلتقي في (...).

ما مصلحتي في لقائك ، لا أريد أن أراك حتى في
أحلامي.

لن تفعل حتى من أجل صديقك إبراهيم.

ماذا ..

لم تدعني انهي كلامي قبل أن تقطع الخط و
تتركني اغرق في التساؤلات ، لم يكن لدي خيار
لذا اتجهت إلى المكان الذي تريد مني أن ألقاها
فيه .

حين وصلت كانت جالسة تقلب شاشة الهاتف .

هاتي ما لديك بسرعة.

أعرف أن الأمر سيكون صادما بالنسبة لك ، لدي
معلومات تشير إلى أن صديقك ابراهيم عضو في
منظمة ارهابية .

وهنا كانت الصدمة ...

" تمت "